

الجزائر و الثورة في رواية «اللاز»

د. كبري روشن فكر¹

علي رضا كاوه نوش آبادي²

الملخص

إن الأدب مرآة حقيقية لحياة الإنسان، ومصابه، ومشاكله، وآماله، وطموحاته وأهدافه، فكلما استطاع أديب أن يصور بمقدرته الأدبية هذه القضايا بصورة أحسن، تمكن المتلقي أن يرتبط بنصه الأدبي أكثر فأكثر فيؤثر فيه تأثيراً أبلغ. هذا وقد حاول الطاهر وطار (1936-2010) بصفته أكبر روائي جزائري معاصر، حاول في ترسيم تاريخ الجزائر المعاصر وبجانبه واقع الإنسان العربي الجزائري في قالب ثري أدبي رائع. يؤيد ذلك، الفحوي الرئيسي لروايته المختلفة خاصة روايته المسمي بـ «اللاز» التي يعالج فيها الروائي الموضوعات التاريخية والاجتماعية كالثورة الجزائرية التاريخية سنة 1962م بمظاهرها المختلفة كتكريم الشهداء، والمجاهدة الفكرية لالتحاق الجميع إلى الثورة، والصمود والمقاومة، والاتحاد رغم الاختلاف والخيانة ويهتم أيضاً بقضية الاستعمار وعدة مظاهرها فيتطرق إلى مسألة الحرية التي تُعد غاية الثورة.

يحاول هذا البحث ضمن المنهج الوصفي وفي ضوء النقد الاجتماعي دراسة الرواية والنتائج تدل على أن الروائي وطار استطاع أن يخطو خطوات ناجحة في ذلك الطريق إذ يساعد علي إحياء اللغة العربية، والثقافة الجزائرية والهوية الجزائرية الأصيلة. فيمكن القول إنه يتكئ علي قلمه كسلاح حضاري معتمداً علي الفكر والوعي، لذلك نراه يدخل ميدان الفن الروائي سياسياً ومناضلاً وبذلك يساهم في استقلال بلاده من الاستعمار الفرنسي. المفردات المفتاحية: الاستعمار - الحرية - الثورة الجزائرية - الطاهر وطار - رواية «اللاز».

1- مقدمة

إن قضايا التاريخ المعاصر للجزائر بما فيها من الحوادث المرة أو الحلوة، الصغيرة أو الكبيرة لفتت انتباه كل أديب، وناقد، وروائي، وعالم علم الاجتماع، ومتخصص علم النفس و... فلا تجد أديباً أو ناقدًا جزائرياً معاصراً مجيداً مشفقاً قلبه لبلده إلا أنه يتطرق في أدبه إلى الاستعمار، والثورة عليه، والحرية، والاستقلال، والمصاعب والمشاكل التي لقد عاشها كل صغير وكبير، شاب أو شيب، ذي مال أو فقير، ... فلا يستثني الروائي الجزائري الشهير، الطاهر وطار، من ذلك، بل انه من المجدّين في هذا المجال، بحيث حاول كثيراً ليعكس في آثاره الأدبية ما يعاني بلده وشعبه منه وما جرّته الجزائر في تاريخه المعاصر من الوقائع المختلفة.

إذا تصفّحت روايات الطاهر وطار³ لم تر رواية إلا وتجد فيها الموضوعات الاجتماعية والتاريخية الواقعة في بلده وبما أن الاستعمار والثورة التي تُعدّ من ظواهر اجتماعية أحاطت بتاريخ الجزائر المعاصر، متلازمة في آثاره والغاية هي الحرية فكرياً وسياسياً واجتماعياً ولها أهمية خاصة وبارزة في روايات هذا الروائي، إذن تجلت هذه الظواهر في بحثنا هذا.

أما السؤال الرئيسي الذي يبحث عن إجابته هذا المقال فهو كيف تجلّت الثورة الجزائرية في رواية «اللاز»؟ وما هي مظاهر الثورة الجزائرية في هذه الرواية؟

هناك بعض الدراسات السابقة المرتبطة ببحثنا فنذكرها فيما يلي حسب سنة الطبع:

- مقال جاكولين الزعيم تحت عنوان «اللاز لبنة في صرح الرواية الجزائرية المعاصرة» المنشورة في مجلة المعرفة سنة 1976م؛ فهذا المقال تدرس هذه الرواية دراسة مضمونية.
- رسالة الماجستير لسلمي محمد سعد سنة 2000م «الثورة الجزائرية في روايات الطاهر وطار» التي نوقشت بجامعة بيروت الأمريكية وأشير فيها إلى مسألة الثورة في رواياته من الخمسينات حتى مطلع التسعينات فتبحث الرسالة عن مسألة الثورة بصورة كلية في آثار وطار كلّها.
- دراسة رحامي و خضراوي تحت عنوان «قراءة في ضوء المفاتيح السيميائية لرواية اللاز للطاهر وطار» المنشورة في مجلة المخبر سنة 2001م
- «رواية اللاز وسلطان الذاكرة» للدكتور عبدلي محمد السعيد؛ فهذا المقال يتطرق إلى البنية الفنية لرواية «اللاز». طبع البحث في مجلة التبيين سنة 2010م.
- «رواية اللاز للطاهر وطار دراسة تحليلية» مقالة انترنيتية دون التاريخ، للدكتور جودت الركابي، يقوم الدكتور الركابي في سبع صفحات بصورة موجزة ومختصرة بتحليل العناصر القصصية في «اللاز» ويتحدث عن مضمون الرواية.

كما نري أن هذه الدراسات السابقة لا تكشف عن الثورة الجزائرية في رواية «اللاز» غير أن دراسة محمد سعد بحثت عن ثورة المناضل الشيوعي الجزائري في الرواية وأما دراستنا هذه تختلف عنها فهي تدرس قضية «الثورة التاريخية ومظاهرها في الرواية» والذي نشأت منه الثورة يعني «الاستعمار ومظاهره» وما نالت إليه بلد الجزائر إبان الثورة يعني «الحرية ومظاهرها» في الرواية بصورة مستقلة.

2- التعاريف والمفاهيم: النقد الاجتماعي:

يحاول النقد الاجتماعي كشف الصلة بين النص والمجتمع الذي نشأ فيه (الحاج حسن، 1997، ص 66). فيربط هذا المنهج بين دراسته الأدب و الدراسة الإجتماعية، إستناداً إلى حقيقه أنّ الادب تعبير عن المجتمع. و قد أدّى هذا المنهج إلى ولادة مقياس إجتماعي جديد هو مقياس الإلتزام في الأدب. (الهواري، 2001، 163)

3- ملخص رواية «اللاز»

إنّ «قصة «اللاز» القوية المؤثرة ترسم لنا حقبة من حقبة الثورة الجزائرية الرائدة التي انتصر فيها الشعب الجزائري على الاستعمار الفرنسي في أقصى صورة والتي أعادت لهذا الشعب البطل حريته واستقلاله وشخصيته بعد أن حاول الاستعمار أن يسحقها فباء بالإخفاق بعد مائة وثلاثين سنة من عهد ظلام مخيف».(الركابي، <http://www.alrewaia.com>)

«القصة تجري في قرية جميلة وسط جبال من قري الجزائر، ويموج فيها سكان طيبون وثائرون عنيدون أمثال «الشيخ الريعي» التاجر، وابنه «قدور»، و«زينة» بنت الشايب السبتي، «مريانة» المسكينة أمّ اللاز، و«حمو» ذلك العامل الأمي الذي يعيش في كهف ضيق وسط الزبل والأدخنة يصارع الفرن ليسخن ماء الحمام ويتقاضى لقاء عمله أربعين دورو⁴ في اليوم ليطعم أربعة عشر فماً مفتوحة». (م.ن) كما يعيش فيها «اللاز» بطل الرواية و«زيدان» الذي يقود الثوار بنزعتة الاشتراكية. في هذه القرية كانت تقوم ثكنة الجيش الفرنسي، مصدر العذاب والنكال ومصدر الهم الدائم، وفيها ضابطها الفرنسي المخنث الذي كان يوزع العذاب على المناضلين بقدر ما فيه من حقارة وقذارة.

«اللاز» هو الشاب اللقيط فظّ الأخلاق الشرير المنفور كما يأتي في النص: «كان الريعي مثل كل سگان القرية ييغض اللاز ويتمّي من صميم قلبه أن تلحقه المصيبة القاضية». (وطار، 2007: 9) وفي الحقيقة، إن «اللاز» رمزٌ للجزائري الذي فقد هويته؛ يعيش ويتزعزع في أحضان الفقر والبؤس، يدخل في الثكنة ويتعاون مع ضابط فرنسي يحتل القرية مع جنوده. ولكن اللاز يري نفسه من الذين أحاطهم الاستعمار الفرنسي ويؤذيه فيعمل في الثكنة مخفياً علي صالح المحبوسين، ويحامي عنهم و«لايتواني عن تقديم التبغ والماء لكل من يطلبه». (م.ن: 13)

وهكذا ينخرط بشكل سري في صفوف المجاهدين ولكن لا يلبث أمر اللاز أن يكشف فيساق إلي التعذيب، ولكنه ينجح بالفرار مع رفاقه من الثكنة بعد تنفيذ عملية فدائية ضخمة ضد جنود الاحتلال بمساعدة أحد المتعاونين الذين تابوا وعادوا إلي صفوف شعبهم، فيهرب الجميع إلي الجبال ويعملون تحت أمر «زيدان» الذي كان أكثرهم علماً وخبراً وأكبرهم سناً.

«زيدان» في هذه الرواية ممثل الشيوعية ويدفع حياته ثمناً لانتمائه الحزبي ويفارق ولده منذ ولادته لأن الثورة أمرت الجميع بكل أحزابهم أن يجمعوا تحت لواء الجبهة. ومن الصور الطريفة التي يعطينا الروائي في الرواية هي أن اللاز الذي لا يعرف أباه في بداية الرواية يفهم نهاياً أن أباه هو زيدان.

إن الشخصيات المختلفة في هذه الرواية بالرغم من اختلاف معتقداتهم وأفكارهم فإنهم يحاولون في النهاية إلي أن يلتحقوا بصفوف الثوار في الجبال للثورة علي ثكنة الفرنسيين.

يموج في هذه القرية أيضاً بعض الخونة والعملاء كـ «الشمبيط» المتسلط المنتفخة بطنه خيانة ولوماً، و«بعطوش» الراعي العجول الذي انخرط في خدمة الجيش الفرنسي ليلتحق إلى درك الخيانة ثم ليصحو صحوه تقوده إلى النضال.

«إن رواية اللاز لوحة تاريخية مؤثرة لنضال أحد التجمعات القروية ضد السلطة الاستعمارية الفرنسية خلال النصف الأول من عمر الثورة الجزائرية وهي تصوير روائي للتركيبة الاجتماعية الطبقية في مجابهتها الموجبة لدعوة جبهة التحرير الوطني إلي الكفاح والفداء وفي مجابهتها بالمقاومة للبطش العسكري الفرنسي». (الزعيم، م.ن: 155)

يقول الناقد الدكتور عثمان عن قيمة «اللاز» الفنية: «ليست قيمة اللاز في مضمونها الثوري، وجرأتها في اقتحام اشكاليات الصراع الايدئولوجي بين رفاق السلاح الواحد قبل أن يتوحدوا في جبهة التحرير الوطني الجزائري فقط بل قيمتها أيضا في أنها تجاوزت الأشكال التقليدية بصيغتها الجاهزة وموضوعاتها المستهلكة فكانت إنجازاً فنياً ضخماً نقل الرواية الجزائرية من مرحلة إلى مرحلة أخرى». (عثمان، 1993: 18)

٤- الثورة الجزائرية في رواية «اللاز»

بما أن رواية «اللاز» تمتلك مظاهر ثلاثة «الاستعمار، والثورة والحرية» وكل من هذه المظاهر متعلقة بعضها ببعض، لأن كل ثورة أقيمت بعد معاناة الناس من الاستعمار والاستبداد والاستثمار وذلك لنيل إلى الحرية فكرية، وسياسية واجتماعية لذلك وقفنا عند الموضوعات الثلاث في الرواية.

٤-1- مظاهر الاستعمار في «اللاز»

في خلال فترة الاستعمار، تري العين المجاهدات والمحاولات القيمة الكثيرة من جانب الشرائح المختلفة كالعلماء والأدباء والشعب، وإن لا تكن هذه المجاهدات من قبل الأقشار المختلفة كلها جميعا لا تحصل علي النتيجة ولا يصل إلى أي نجاح.

لا شك أنّ للأدباء في هذا المجال دوراً وأهمية لا يستطيع أحد أن ينكرها حيث إنهم يساهمون في المجاهدة بتصوير المصاعب، والمشاكل، والأذي، والحرمان، والفقر، وعدم التفكير، وعدم الوحدة، والتخلف و... إلخ في آثارهم. إنهم يحاولون تهييج الناس واتحادهم ضد الاستعمار والثورة عليه لأجل الحرية منه مع كتاباتهم إما قبل الثورة وحين الاستعمار، وإما حين الثورة وإما بعد الثورة وبعد النجاح علي الاستعمار. فحقاً إن الطاهر وطار يعد أحداً من كبار أدباء الجزائر في هذا الحقل.

إن رواية «اللاز» تصوير حقيقي عن تاريخ الجزائر إبان الاستعمار الفرنسي، وثورة الجزائر وكفاحها. واللاز بطل الرواية هو نموذج للشخصية الوطنية الجزائرية.

إن رواية اللاز تقوم علي محورين:

1- تصوير الصراع الخارجي بين الشعب الجزائري والاحتلال الفرنسي.

2- تصوير الصراع الداخلي بين المقاتلين الجزائريين لاختلاف انتمائهم العقائدية والفكرية. (م.ن: 19)

إنّ للاستعمار والاستبداد مظاهر منها: الظلم والجور، وانعدام الأمن والأمان، والفقر والبؤس و... إلخ. فالروائي وطار يسعى إلى تصوير هذه المظاهر في مقاطع مختلفة من الرواية وذلك من خلال استخدام الصياغة اللغوية بمظاهرها المختلفة كالوصف والتكرار وخصائصها السيميائية.

يصور الروائي وضع مجتمعه نتيجة للاستعمار والاستبداد، بصورة عامة في فقره من لسان حمو الذي يريد أن يسوق قدور إلى الجبهة الوطنية ضد الفرنسية: «الوضع الذي أصبح عليه الناس من فقر وبؤس وعري وجهل ومرض وظلم وجور». (وطار، 2007: 41)

إن وطار يستفيد من عنصر التكرار في هذه العبارة، فالقصد من التكرار عند القدماء هو: «دلالة اللفظ علي المعني مرددا كقولك لمن تستدعيه (أسرع، أسرع) فإن المعني مردد واللفظ واحد» (ابن الأثير، ج2، 3465) وعرفه النقاد الجدد كمرتاض: «إنه سمة من سمات الأعمال الأدبية الخالدة وذلك لأن المرء حين يطول حديثه عن شيء أو قصته لحكاية يضطر إلي تكرار بعض الألفاظ أو بعض الأفكار أو بعض العبارات لأسباب مختلفة». (مرتاض، 1991: 210) كالتأكيد وتقرير المعني في النفس أو قصد الاستيعاب، أو التلذذ، أو الترغيب، أو التردد أو الإرشاد ... (الهاشمي، 1386هـ.ش: 245-247)

فان وطار جمع مفردات مترادفة نحو (الفقر والبؤس)، و(الظلم والجور) ففيه تكرار لفظي، نري أيضاً في العبارة تكراراً معنوياً فتعبر كل هذه المفردات (الفقر، والبؤس، والعري، والجهل، والمرض، والظلم والجور) علي مفهوم واحد وهو تخلف بلد «الجزائر» فيستخدم الروائي التكرار للتأكيد في كثرة تخلف المجتمع وتقرير المعني في نفس القارئ. يعتقد الروائي أن مصدر الفقر والجهل والتخلف يعود كله إلي الاستعمار حيث يقول: «... قرن وقراءة النصف من الاستعمار المباشر... ومجتمع أشد تخلفاً من مجتمعات القرون الوسطي... مجتمع تطمس البداوة... مجتمع رعوي ضارب في التأخر والانغلاق». (م.ن: 87-88)

فبصورة خاصة يكشف اللثام عن مظاهر الاستعمار فبينها علي أساس ما يؤكد الروائي علي روايته هذه، تحت عناوين: الظلم والجور، وعدم الأمن والأمان، والفقر والبؤس، والظروف الاجتماعية التعسة:

4-1-1- الظلم والجور

منذ بداية القصة، يؤكد الروائي علي الظلم والجور بتصوير من مظاهر الظلم كالاغتفال والتعذيب، وذلك من جانب

الثكنة الفرنسية التي استقرت في القرية يتحدث عنهما في مقاطع متعددة كقوله: «جميع الذين يلقي عليهم القبض، يمكنون تحت التعذيب في الثكنة». (م.ن: 12)

أو في فقرات أخرى يصور اعتقال اللازم من خلال وصف رائع: «جنديان يجران اللازم من ذراعيه وثمانية يستحثونه السير بالكلمات والضرب بمؤخرات البنادق، بينما الدم تتطاير من أنفه ووجنتيه وجبهته وشفتيه وهو يترنح مرة ويقاوم أخرى». (م.ن: 13)

في الحقيقة، إن الروائي وطار يعتقد أن مصدر العذاب والنكال في الجزائر كله يعود إلي الاستعمار الفرنسي كـ «ذبح الإخوة، تحطيم المدارس والجسور، الاعتقال والتعذيب». (م.ن: 35) بعبارة أخرى، إن الاستعمار الفرنسي بآلاته العسكرية يؤدي إلي تشريد الشعب الجزائري وتعذيبه وقتله ويسعي إلي سلب أراضييه وطمس هويته وانتزاع كرامته وسيادته الوطنية.

من المظاهر الأخرى للظلم والجور هي التحقير، تحقير الثقافة القومية وتحقير اللغة، يكشف الروائي عن ذلك في فقرة من الرواية حيث يقول: «ترنم قومي لا شعوريا بلحن أغنية (من الانجليزية) برزت في أعقاب الحرب العالمية دون أن يعرف أحد مصدرها تمجد الأمريكيين والأوروبيين وتذمّ العرب». (م.ن: 203)

4-1-2- عدم الأمن والأمان

إن الإنسان الذي يعيش في المجتمع المستعمر لا يشعر بالهدوء والأمن، فكيف يمكن أن يشعر بالهدوء؟! وهو يرى أن عربات الجيش تتسرب أمامه من هنا وهناك والطائرات تقذف القنابل الكثيرة تنفجر في أماكن مختلفة. يعطينا الروائي تصاویر رائعة مؤيدةً ذلك: «القرية كما خلفه الرومان، تتأمل الجبال، في كآبة ما تزال... المارة والتجار الواقفون أمام دكاكينهم، يتفقدون عقارب ساعاتهم بين الفينة والأخرى والحركة تقل شيئاً فشيئاً بعد أن ملأت عربات الجيش الطريق الرئيسي عائدةً مغبرةً دكناء من ميادين العمليات وسط تعاليق تتسرب من هنا وهناك. خسارتهم كبيرة اليوم. كأهم راجعون من جنازة». (م.ن: 9)

يصف وطار في هذا المقطع، القرية والأمكنة التي تعاني من الاستعمار الفرنسي وكما يتضح أن وصفه مندمج مع الصور الفنية وتشبيهات لها دلالات خاصة نحو عبارة «القرية في الكآبة ما تزال» يشير إلى أن الاستعمار والواقع العربي الموجود في مجتمعه يؤدي إلى الحزن والكآبة.

فإن الروائي وطار يلتجئ إلى استخدام الوصف في التطرق إلى كثير من أحداث الرواية، لأن كل سرد يحتوي الوصف و«يمكن كما هو معروف، أن نصف دون أن نسرد ولكن لا يمكن أن نسرد دون أن نصف» (مرتاض، م.ن: 208) فالوصف يسهل فهم المقاطع المختلفة للمتلقى.

أما تحريك الدبابات واحدة تلو الأخرى، الدبابات التي تشبه الأفاعي فانفجارها يكون أكثر دويًا من انفجار العربات في خيلاء واعتداد وانطلاق العربات المليئة بالعسكر، العسكر الذي لا يسعى لاحتلال نقطة إلا بعد أن يقبلها، (م.ن: 102 و 170 و 188) فكل ذلك، يسوق المجتمع إلى حالة الاختناق وعدم الأمن والأمان.

يكثّر الروائي من التطرق إلى ترسيم عدم الأمن نحو ما جري في ذهن أحد الشخصيات عندما يفكر في نفسه: «إنه يتذكر كيف كانت الطائرات تقذف مئات القنابل تنفجر هنا وهناك وفي كل مكان، وكيف كان هو وكل أفراد دواره يتراخضون في الحصائد كالجائنين والبيران تلهب من تحتهم ومن فوقهم...» (م.ن: 36)

وكذلك هذه العبارة تؤكد علي عدم الأمن وإن يبالغ الروائي في ترسيم الصورة فإنه يريد أن يرينا شدة عدم الأمن الذي جري في الجزائر، يقول: «تتالت الانفجارات، الواحد إثر الآخر وارتفعت ألسنة النار إلى عنان السماء وتسارع العساكر من هنا وهناك...» (م.ن: 212)

في الواقع، إن فضاء النص المتشنج يبيّن فضاء المجتمع الجزائري المتشنج والمضطرب، يؤيد ذلك، وجود مفردات وعبارات نحو «الدبابات، انفجارات القنابل واحدة تلو الأخرى، العربات المليئة بالعسكر، الطائرات الحربية، ألسنة النار و... إلخ». بعبارة أخرى، إن الصور الممتلئة بالحركة والاضطراب تكشف عن الفضاء المضطرب وعدم الأمن في المجتمع الجزائري التي أصابت بمرض الاستعمار. وذلك كله يدل علي مقدرة الروائي اللغوية، فإن وطار استطاع بالجوء إلى مظاهر الأداء اللغوي أن يضع القارئ في نفس الوقت فكأنه يعيش هذه الفوضى والاضطرابات والحركات القمعية فيدركه أحسن الدرك.

4-1-3- الفقر والبؤس

الفقر والبؤس من سمات المجتمع الذي يعاني من الاستعمار فمن الطبيعي أن يموج في هذا المجتمع التمييز الطبقي حيث جماعة كثيرة من الناس يعانون من الفقر وجماعة قليلة يعيشون في النعمة والثروة. تؤيد قولنا هذا، هذه الفقرات من الرواية: «افتقر المزارعون وأصحاب الصناعات والعمال وأثري التجار... الحروب تقضي علي الطبقات وتخلق طبقات أشد ظمأً للاستغلال والانتهازية... هذه الحركة... ينبغي أن تتبني الصراع الطبقي من الآن، وآلا بقيت مجرد حركة التحرر... الخطر كل الخطر أن يحولها الاستعمار إلي صالحه عند انتهائها». (م.ن: 130) إن زيدان بواسطة شيوعيته يؤمن بالصراع الطبقي داخل وطنه ويرى أن الصدام بين الأغنياء والفقراء ينبغي أن يكون دموياً وأن الفقراء والمساكين والطبقة العاملة الكادحة هم المجاهدون والثوار وعليهم أن يذبحوا الأغنياء لأنهم أيضاً أعداء الثورة. (م.ن: 85-86) إذن، إن الروائي وطار يحاول كشف اللثام عن الفقر الموجود بين الطبقات المختلفة ويصور التمييز الطبقي الذي أحاط المجتمع الجزائري فلا يرى له سببا إلا وجود الاستعمار.

4-1-4- الظروف الاجتماعية النعسة

«فباللار بواسطة الشقية أمه يتصل ببعض العاهرات ويمهد لهن سبل الاتصال بالضابط، سواء في مقره أو في ديارهن... فأمه ازدهرت وضعيتها الاقتصادية وصارت تشتري السكر بالكيلو والقهوة بالعلبة والزيت باللتر...» (م.ن: 12) هذا تصوير سوء يرسمه لنا الروائي ولو يدور في أذهان الناس، لكنه في الحقيقة يشير إلي الوضع الاجتماعي السيئ الذي جري في الجزائر وذلك لأسباب مختلفة منها الفقر والبؤس، وعدم الأمن، الاستغلال والظلم، وتلاقي الثقافات المتباينة (الفرنسية الأجنبية والجزائرية الأصلية) و... إلخ . يقول الربيعي عن اللار: «هذا اللقيط الذي لا يعرف من أبوه». (م.ن: 9) يقول زيدان: «واللار... آه، ابن حطيتي وزناي». (م.ن: 132)

بالنسبة إلي اللار بطل القصة، فالروائي يرسم صورا له يؤكد علي أنه ابن غير شرعي لأمه مريانة وزيدان. في الحقيقة، إن الروائي يريد أن يكشف عن الحالة الاجتماعية والثقافية السيئة التي اندمجت بالثقافة الأجنبية التي نشأت كلها من منشأ الاستعمار. فيذعن وطار من لسان زيدان -فكأنما يناجي نفسه (بصورة الحوار الداخلي)- خلال يوم من أيام الثورة إلي أن اللار، ابن كامل الدوار، ابن جميع الناس، ابن ذلك الزمن، ابن ماضيهم كله. (م.ن: 83) الشيء الطريف الذي نراه في الرواية هو سيمائية مفردة اللار «العنوان الرئيسي» والتي تشير إلي اهتمام ومقدرة الروائي اللغوية.

يهتم علم السيميائية⁵ اهتماماً بالغاً بالعنونة⁶ لأنه يعدّ أداة للولوج إلي خبايا النص وكشف أسرارهِ. (رحماني وخضراوي، 2001: 186) نقصد بسيمائية العنوان كظاهرة لغوية، الدلالة التي تعطينا كلمة العنوان للانتباه الأكثر والفهم الأصح، «إن العنوان يمدنا بزايا ثمين لتكليف النص ودراسته... وإنه يقدم لنا معرفة كبرى لضبط انسجام النص وفهم ما غمض منه، إذ هو المحور الذي يتوالد ويتنامي ويعيد إنتاج نفسه والعنوان هو الذي يحدد

هوية النص»، (مفتاح، 1987: 72) فهو بمثابة سؤال اشكالي بينما النص هو بمثابة إجابة عن هذا السؤال فالعنوان يحيل علي مرجعية النص ويحتوي العمل الأدبي في كليته وعموميته. (حمداوي، 1997: 108)

تعني اللاز في العامية الجزائرية: «القصير القذر، ويذكر أن اللاز يطلق علي البطل من غير قومه وفي القديم كان يطلق علي الأدبي من العملة النقدية وحديثاً يطلق علي العدد المفرد في أوراق اللعب ويذكر كذلك أنها لعبة شعبية معروفة في الجزائر». (الخطيب، 2008: 68-73 و www.yoon.com)

المقصود باللاز هو رمز للشعب إلي الواحد المفرد الذي لا تتغير قيمته إلا نادراً. (الطرابلسي، 2003: 15) والاسم الذي يتخذه البطل (اللاز) يشير إلي معنيين متناقضين: الدلالة علي قدر المصير والدلالة أيضاً علي البطولة، وينطبق هذا التناقض في المعني تماماً مع الدور الذي يقوم به فهو سوء طالع في نظر سكان القرية لأنه لقيط وابن غير شرعي لمريانة وبهذا المعني يشير الروائي إلي حقيقة الظروف الاجتماعية التعسة ولكن من جهة أخرى، بطولته ترجع إلي أنه يساعد المحبوسين الجزائريين علي الفرار من الثكنات العسكرية الفرنسية فيصبح مناضلاً نبيلاً كبقية سكان القرية. بعبارة أخرى، هناك تناقض في اسم اللاز وشخصيته، اسمه ذو الدلالة القذرة وشخصيته المخلصة النبيلة لفئات الشعب من الظلم فالروائي يستخدم هذه المفردة منوياً حيث يرسم في البداية، اللاز لقيطاً شروراً ثم يجعله بطل قصته لأنه يخطو نحو الثورة ويلتحق بصنوف الثوار فيساعدهم.

من خلال هذه التصاوير التي يعطينا الروائي، نستطيع القول بأنه يري المشكلة في وجود الواقع الاستعماري الذي يسوق المجتمع نحو القهقري فتتدهار القيم الإنسانية والاجتماعية للفقر والبؤس والظلم والاستبداد وعدم الأمن. فيمكن القول بأن الروائي يؤكد علي ظاهرة الاستعمار بمظاهره المختلفة وآثاره المهدمة حيث تلعب هذه الظاهرة دوراً أساسياً في كل حدث من أحداث الرواية.

٤-2- مظاهر الثورة في «اللاز»

إننا لم نخطأ إذا سمينا رواية اللاز رواية الثورة لأنها تتحدث دائماً عن يوميات الثورة، مصاعبها وشدائدها. كل ثورة لكي يلحقها النجاح وتبلغ إلي مناهها تفتقر إلي مقومات مختلفة منها الاتحاد لأجل الثورة، والمجاهدات النضالية، والتضحية والاستشهاد من قبل الشخصيات المختلفة للثورة، فتعدّ هذه المظاهر أسباب نجاح الثورة:

4-2-1- تكريم الشهداء

قبل كل شيء، لا بد أن نذكر أن وطار يهدي هذه الرواية إلي «ذكرى جميع الشهداء» في بداية روايته. (م.ن: 5) ثم جاء بتصوير من مسرح الشهادة وهو يكرمهم: «سيد الرجال، عشر رصاصات ومات واقفا». (م.ن: 7)

يقول الشيخ الربيعي في نفسه (بصورة الحوار الداخلي): «إنهم كعادتهم، كلما تجمعوا في الصف الطويل، أمام مكتب المنح، لا يتحدثون إلا عن شهدائهم والحق أنه ليس هناك غير هذه الفرصة لتذكرهم والترحم علي أرواحهم والتغني بمفاخرهم». (م.ن: 7)

يشير الروائي إلى ذلك في عبارة أخرى عن لسان «سي فرحي»: «الموت في الثورة حل صالح لجميع المشاكل... قد يكون كثير من الذين ماتوا علي يد الثورة غير خونة... قد يكونون مناضلين؛ مناضلين مسؤولين مثلي». (م.ن: 32) «إن الثورة ليست سوي شيء واحد... هذا الشيء هو التضحية...، التضحية بكل الشيء، ليست الثورة غير التضحية، التضحية هي الثورة... هذا ما يصنع كل الأحداث...». (م.ن: 34) عبارات الطاهر وطار تنم عن تكريمه فضيلة الشهادة حيث إنه يعتقد أن الموت والشهادة تحلّ كل مشاكل الناس. في الحقيقة، إن تكريم الاستشهاد والمفاخرة به والتحدث عن الصعوبات التي أمضاها الشهداء يؤدي إلى تحريك عواطف الذين لم يلتحقوا بصفوف الثوار بعد فالروائي يصور ذلك فيري الاستشهاد والتضحية من الفضائل التي تبعث الاعتزاز والفخر لدى الناس.

4-2-2- المجاهدة الفكرية لالتحاق الجميع إلى الثورة

في غضون الثورة، هناك بعض أشخاص لا يلتحقون بجانب الثوار لأسباب عدّة كالخوف والحياة والتخلف الفكري والترديد وما إلى ذلك؛ حينئذ يسعى المثقفون والمفكرون والمجاهدون إلى أن يظهر الحق لهم ويعطيهم الأمل والرجاء. يصور وطار هذه التبادلات الفكرية عن لسان بعض الشخصيات: «الفرنسيون نخافهم، نخترمهم، نتفاني في تقديم الخدمات، لماذا نخارهم ونخاصمهم؟» (م.ن: 36) «نخشي فقط أن يعيدوا لنا ثمانية ماي آخر». (م.ن: 35) القصد من ثمانية ماي هو تاريخ مجزرة ارتكبتها الفرنسيون، فالبعض يخافون من تكرار ذلك من قبل الفرنسيين المستغلين.

لعل أحسن المصايق التي توج فيها حالة الخوف والترديد هي شخصية قدور الذي يردّد دائماً، يخاف أحياناً ويظن أن النجاح علي فرنسا، هذه القدرة الأبدية بلا منازعة، أمر مستحيل، حيث يقول: «إن فرنسا قوية جداً. أقوى من كل شيء... أهو الدبابات؟... إنها ملك فرنسا... المال؟ مال الدنيا كله عند الفرنسيين...». (م.ن: 35)

عن طريق مونولوج، يصور الروائي تفكير قدور في نفسه: «إخراج الفرنسيين... ولكنهم الأسياد... قوة... نظافة... جمال... جنتهم الدنيا وجنتنا الأخرة». (م.ن: 36) أما مقابل ذلك الشخص المردد في أمره، فيجعل وطار شخصية هو الذي تحدّث معه أخوه زيدان وأقنعه لالتحاق بصفوف الثورة فيواصل هو خطوة زيدان في إظهار طريق الحق لقدور ويملأ الجو من الأمل والرجاء حيث يجيء في النص (علي صورة الحوار الخارجي): هو: «ما يبقى في الوادي غير حجاره» (م.ن: 35) يسأل قدور عن حجار الوادي فيجيبه هو: «الصُحّ، الصُحّ، لا يبقى في البلاد غير الصُحّ».

- لكن ما هو هذا الصُحّ؟... أهو القوة؟... حتي في ثمانية مايب قالوا إنه لن يبقى غير الصح... وفي الواقع لم يبق إلا الفرنسيين.

- ... الصُحّ هو الحق... وهذه البلاد ليس فيها حق، لكن سيأتي يوم ولا يبقى في الوادي إلا الحجارة إلا الصح إلا الحق». (م.ن: 37 و 35) مازال هو يبذل قصاري جهده لإقناع قدور فيملاً قلبه من الأمل والرجاء قائلاً:

«يخرج الفرنسيون، يفقر الأغنياء وينعدمون، ينام الناس علي الشعب، نقرأ كلنا، نتعلم العربية والرومية بما فيها الانجليزية والرومية والروسية». (م.ن: 37)

«يصبح الحاكم من عندنا ... الشامبيط والخوجة والقائد والشرطي منا ... نصير فاهمين، نظيفين، جميلين، محترمين، كالفرنسيس. لسنا وحدنا نطمح لكل هذا... هناك أيضا المصريون والتونسيون والمغاربة وحتى الكفار... فيهم من يعاني مثل وضعنا ففي الهند الصينية أناس مثلنا، ولو أن دينهم يختلف عن ديننا... كان يحكمهم الفرنسيون فثاروا عليهم وغلبوهم وهربت فرنسا منهزمة... . الفرنسيون ليسوا منا... لقد جاؤوا بلدنا ظلماً، وجاؤوا من بلد آخر يسمى فرنسا». (م.ن: 37)

أمام هذا المنطق، يغور ويتغرق قدور في دوامة من التفكير، فيعجز عن طرح أسئلته الأخرى. (م.ن: 37) يفكر في نفسه فيقول عن طريق المونولوج أو الحوار الداخلي:

«اقتنع الناس كلهم في الهند الصينية مثل ما يقوله حمو واستطاعوا أن يخرجوا الفرنسيين، هذه البلاد مثل بلادنا وأهلها كانوا مثلنا والفرنسيون كانوا عندهم بالصفة التي هم بها عندنا ... مع ذلك خرجوا مع ذلك، انهمزوا...». (م.ن: 38)

مثلت الروائي في هذه الفقرة بالأمم التي كانت ترضخ تحت نير الاستعمار الفرنسي ثم خلصت من هذا النير بمقاومتهم إزاء السيطرة الفرنسية.

يصور وطار هذه المجاهدات الفكرية في حوار خارجي يجري بين زيدان وحمو:

«آلامنا لن تنمحي بسرعة ... حتي المحيطات لن تغسل قلوبنا، حتي السماوات لن تحتوي نفسنا ... إذا ما استقامت انطلاقتنا هذه، فسنكون عمالقة العمالقة، كالسوفييتيين، كالصينيين، سنقي وحدنا، لأننا الكثرة وسنعمل حتي النهاية علي محو آلامنا ...». (م.ن: 84) والحقيقة هي أنهم لا يعانون من ألم جسمي بل الألم الحقيقي هو ما ينشأ من الاستعمار والاستثمار والبؤس والفقر والتخلف و... مما يجب الثورة عليها.

«ينبغي أن لا نياس، فرنسا لن تخرج من هنا بسهولة والحرب التحريرية لن تُهزم بسهولة وفي أثناء استمرار الحرب، قد تحدث تطورات لم تكن في حساب أي أحد... إن الكثير من الموجودين الآن لن يستمروا سنوات طويلة وستعاقب الأجيال والقيادات علي مواصلة الحرب». (م.ن: 203)

في مقطع آخر يملأ الروائي الجو من الأمل بقوله علي لسان أحد الشخصيات إلي سقوط الإمبرالية والاستعمار في النهاية حيث يقول: «تسقط الإمبرالية⁷، يسقط الاستعمار، تسقط الرجعية⁸...». (م.ن: 218) إذن، يمكن القول: إذا تورقت الرواية لم تر فيها سوي المجاهدات الفكرية التي يصورها الأديب دائماً، فيمثل الروائي علي لسان الشخصيات المختلفة باستقلال الهند الصينية والسوفييتيين كأسوة مواطنيه فيؤكد علي أن الجزائريين أيضاً قادرون للثورة ضد الاستعمار كما استطاع أولئك. (م.ن: 128)

4-2-3- الصمود والمقاومة

إن الصمود والمقاومة تعدّ من ملازمات دائمية لكل ثورة تخطو إلى النجاح، يؤكد وطار علي هذه السمات في مواقف متعددة: يطلب زيدان من المناضلين أن يلتزموا بالشجاعة والصبر والسلوك الحسن طوال الثورة. (م.ن: 132) يؤكد الروائي علي أنّ الاستمرارية والصمود هما فقط المعيار الذي يقوم به المناضل المكافح. (م.ن: 133)

ويكرم روح التضحية والإيثار كمظهر من مظاهر المقاومة قائلاً: «الفداء روح الثورة، فرنسا تخرج ويداها في الطين». (م.ن: 139) و«إن معظم المجاهدين وإن كان ينقصهم التفكير الواضح، لا تنقصهم الجرأة وروح التضحية والفداء...». (م.ن: 173)

من الصور التي يؤكد الروائي علي رسمها في الرواية هي مناضلات اللّاز حيث إنه بعد أن ساعد الثوار والتحق بجماعتهم وحاهد للثورة، اعتقله الضباط الفرنسيون فبدأوا بتعذيبه للاعتراف فهو يقاوم بما يعرفه ويكمنه في نفسه، يقول الضابط للّاز: «مع من تعمل؟ تكلم ... هيأ أنطق ... تكلم ...». (م.ن: 66) يعذبه الضابط طالباً الاعتراف فيواصل وطار هذه الحالة في أربع صفحات، بعد ذلك يفكر اللّاز في نفسه فيقرر إجابته كذلك: «يجب أن أعترف اعترافاً كاذباً حتي أمهل قدور الوقت الكافي...». (م.ن: 70) لأن «الأوامر تمنع الاعتراف والثورة تحكم بالخيانة علي المعترف». (م.ن: 69) فاللّاز يواصل طريقه النضالي دون أن ينهار أو يعترف علي إخوانه المجاهدين.

٤-2-٤- الاتحاد رغم الاختلاف والخيانة

أما المسألة المهمة التي يؤكد عليها الروائي وطار فهي الاتحاد الذي فقّده مجتمع الجزائر وذلك لوجود الأحزاب المختلفة التي لها اتجاهات فكرية وعقائدية مختلفة ولكن الحلقة التي تلصق بعضها بعضاً هي الثورة ضد الاستعمار والظلم والفقر والتخلف... يصرح الروائي علي ذلك، حينما يتحدث عن الشخصيات التي كل واحد منهم يمثل جماعة أو فرقة لها اتجاه فكري وعقائدي؛ فإن زيدان رجل سياسي ممثل شيوعية، قدور- كما يتضح لنا في بدايات الرواية- مشغول بغراماته مع كل من داينة وخوخة ومباركة، فيحب زينة حباً جمّاً، ويعطوش ممثلاً الخائنين الجواسيس الذين يلتجئون بشكنة الفرنسيين. لكنهم يعودون إلي وعيهم الوطني فيتحدون في شيء واحد فليست سوي الثورة.

يصور الروائي هذه الفوضى في فقرة قائلاً: «كل واحد في حاله، ... رمون شيخ بلدية، جان جون وموريس فضيعاتهما وخماراتهما والحاج الطاهر وكل الحاج في قصورهم». (م.ن: 38)

يشير الروائي في الرواية إلي تكوين جبهة وطنية: «لأول مرة في التاريخ يطرح موضوع تكوين جبهة جديدة من أفراد لا من أحزاب... هذا يعني تكوين حزب جديد،... نحن في بداية الطريق وأن الجزائريين الخارجين عن أي حزب أكثر من المنضمين للأحزاب والحركات، ويمكنهم أن ينضموا إلي هذا الحزب الجديد...». (م.ن: 161)

إن وطار يؤكد علي وحدة المناضلين بالرغم من اختلافات الناس العقائدية ضمن جبهة وطنية متحدة لأجل التحرير، فذلك سمي بـ «جبهة التحرير الوطني» الذي سجلها التاريخ الجزائري المعاصر حيث يجيء في النص: «لقد

قررنا حل الأحزاب جميعها وتكوين جبهة واحدة». (م.ن: 180) ثم يصور انضمام بعض الشخصيات إلى الثوار حيث يتحدث عن الجهد الذي بذله هو لإقناع قدور حتى ينضم إلى الثوار: «يا هو أنا فقير، فقير جدا ... وأنت متوسط الحال بل غني ... نحن لا شيء يربطنا بالماضي وأنتم لا شيء يدفعكم إلى المستقبل ولم يبق بيننا إلا رابط واحد وهو الحاضر ... لا بد، لا بد أن أنضم إليكم، إنني معكم، واحد منكم، إذا خرجت فرنسا أتزوج زينة وأشتري الحمام». (م.ن: 42)

وأخيراً فهم قدور أن الثورة، أن هذا العمل الذي يقوم به هو وزيدان وكل الفقراء وحتى هو أخيراً، عمل جاد عظيم. لا بد أن يغير الأوضاع فعلاً كما يقول هو. يشعر باحتقار المال الذي كان يظن أنه سر الحياة (م.ن: 43) فأصبح «مناضلاً مسؤولاً حتى بقي وحده في القرية». (م.ن: 43) واستشهد نائياً. حينما تلاقي زيدان وقدور معاً، يواصل زيدان إقناع قدور أكثر فأكثر ليصبح مناضلاً خالصاً متطهراً من كل شيء يقول زيدان لقدور: «الثورة تحول الإنسان، مادامت عميقة فإن التحول يحدث بسرعة، يجب أن يتحول قدور إلى مناضل ثوري متطهر من العقد والرواسب ... يجب أن يرتفع ويرتفع إلى مستوى الثورة». (م.ن: 49) في الواقع، إن هذه العبارة تعبر عن مقومات داخلية وروحية ونفسية لشخص يكاد أن ينضم إلى الثورة فيصبح ثورياً نبيلاً.

يتضح لنا من الصور التي يعطينا الروائي أن هناك شخصيات كانت تحون وطنهم خلال الاستعمار الفرنسي بانضمام إلى الثكنة الفرنسية جاسوساً ولكن لا يلبث أن يعودوا إلى وعيهم الوطني فيحسوا بالندامة فينضموا أخيراً إلى صفوف الثوار بالرغم من خيانتهم السابقة. يؤكد الروائي هكذا علي أن الثورة تتطلب الاتحاد رغم الخيانة والاختلاف.

يمثل بعطوش هذه الخيانة في الرواية، لأنه كان راعياً للعجول ثم جند في صفوف الجيش الفرنسي وأبدي تعاوناً وإخلاصاً في خدمة الاستعمار (م.ن: 103-104) ولكن لا يلبث أن يندم فيلتحق بالثوار فيحقق إنجازات باهرة في الكفاح الثوري باغتيال القبطان وإشعال براميل البنزين. (م.ن: 215)

4-2-5 المناضلات الثورية

من الصور الرائعة التي يعطينا وطار حول المناضلات الثورية، هي أن هو يطلب من قدور أن يخلقه في القرية فيخبره بأن كلمة السر بينك وبين المناضل هي: «ما يبقى في الوادي غير حجاره» ليقبل ثلاث مرات. ثم «ذات مساء فوجئ في الدكان بما لم يكن يتوقعه أبداً. دخل اللاز ثملاً قدراً، إحدي عينيه زرقاء من أثر معركة يبدو أنه لم يخرج منها إلا لحينه وهو يردد، كما لو أنه يهذي بأغنية بحار، استيقظ من السكر: - ما يبقى في الوادي غير حجاره. أنصت قدور جيداً مشدوهاً مذهولاً... حتي ردد اللاز الجملة ثلاث مرات، ثم هتف: أنت الأخ المناضل، ماذا أسمع؟ اللاز ما بك؟» (م.ن: 43)

نعم، ها هو اللاز الذي لجأ إلى الثكنة الفرنسية وكان يتعامل مع الضابط الفرنسي، هو اللقيط لا يعرف حتي أباه لكنه لم يستطع أن يترك فطرته ويطغى النور المنور في وجوده وفي تلك الثكنة كان مساعداً لتهريب الثوار المسجونين، فحالياً، لقد أصبح من المناضلين.

جدير بالذكر أن لعبارة «ما يبقى في الوادي غير حجاره» دلالة رمزية في الرواية حيث تكررت هذه العبارة ثلاث عشرة مرة في صفحات (8، و35، و37، و43، و56، و219، وثلاث مرات في صفحة 220، أربع مرات في صفحة 221) إن هذه العبارة المكررة، رمزٌ للانتصار فكانت جارية علي ألسن رجال الثورة كما كانت جارية في أفكارهم وكان سرّاً للثورة. بعد المناضلات والمجاهدات العديدة تسمع الأذن أنباء مسرة مبينة النجاح في بعض الأمور: «فرار الجنود و«القومية» أحدث اضطراب كبيراً في صفوف العدو... الأمور كلها حسنة». (م.ن: 49-50)

إن القومية التي يشير إليها في هذه الفقرة هي مليشيا مضادة للثورة جندها الاستعمار فهي حادثة واقعية جرت في الجزائر؛ ففراها مع الجنود علامة من علامات نجاح الثورة. تواصلت المجاهدات النضالية تحت زعامة زيدان، فإنه قسّم المناضلين إلى فرق صغيرة، ثلاث منها تتكون كل واحدة منها من سبعة جنود، والفرقة الرابعة متكونة من عشرين جندياً فيحدد لكل مهمة. فانتخب شخص مسؤولاً مالياً وشخص مسؤولاً إخبارياً أما المناضلون في جريان الثورة فيواجهون مشاكل عدة منها عدم امتلاك الوسائل الإخبارية حيث يقول زيدان: «إن نقطة الضعف الكبيرة في صفنا هي عدم امتلاكنا لوسائل التخابر العصرية». (م.ن: 92) حتي يتنهذ من أعماقه شخص من الثوار فيقول: «آه، لو كان لدينا أجهزة اللاسلكي». (م.ن: 91)

كما ذكرنا أن زيدان في هذه الرواية يمثل للشيوعية ويدافع عن شيوعيته فيري حل جميع المشاكل بالتمسك بالاشتراكية حيث يقول: «هل مازلت شيوعياً؟ أفهمته بأن الشيوعية ليست رداء ننزعه في الوقت الذي نشأ وانها عقيدة تقوم أول ما تقوم علي الاقتناع المدرك للحياة...، هل الشيوعية شيء محرم مثل الخمر والزني والسرقة والخيانة؟ ... إن الشيوعية لاثقة بالفقراء والمساكين وضد الأغنياء لأنهم ضدنا، ضد الثورة ... لا يكتفون بمنع الإعانة عنا، بل يشوون بنا للعدو...». (م.ن: 85-86)

أما في ختام الرواية، فيستشهد قدور بعد مناضلات جادة. حينما يعود اللاز إلى القرية ويسأله الشيخ الربيعي عن قدور فيجيبه «ما يبقى في الوادي غير حجاره» وكلما يسأله سؤالات أخرى فهو يجيب كراراً ومراراً «ما يبقى في الوادي غير حجاره» فيقول الشيخ عندما تستيقظ يا اللاز أروي لك كل التفاصيل وستحدثني بدورك عن تفاصيل استشهد قدور ابني». (م.ن: 221)

فيختم الرواية الطاهر وطار بهذه العبارة الرائعة عن لسان الشيخ الربيعي: «إنك الآن أفضلنا جميعاً يا اللاز، لأنك لا تحس بشيء، لأنك ما تزال تعيش الثورة، بل لأنك الثورة ... ما يبقى في الوادي غير حجاره. ما يبقى في الوادي غير حجاره». (م.ن: 221) يؤكد الطاهر وطار علي أن اللاز هو المناضل الحقيقي الذي رسخت الثورة في عمق وجوده فعاش الثورة حتي أصبح هو نفسه الثورة. وفي الحقيقة، إن اللاز رمز للثورة.

إن هذه الرواية رواية الثورة والنضال للحق علي الباطل والمجاهدة للحرية، فإن وطار حاول في أشهر روايته «اللاز» أن يصور ما جري في تاريخ الجزائر المعاصر، ما جري في يوميات الثورة. لأن ما يريده الروائي وطار في كتاباته هو الثورة علي الاستعمار والإرهاب والمحاولة لكسب حرية الجزائريين، أكد عليها الروائي في حوار أجراه كمال الرياحي: «إن مصطلح الإرهاب ينبغي أن يستعمل بدقة وحسب مختلف مناطق العالم، وعلي فكرة، ليست لي أية عداوة مع المؤمنين، اسلاميين أو غير اسلاميين، قضيتي هي الطبقة العاملة، وأعدائي التاريخيون هم مستغلوها وكذا الإمبرالية والاستعمار بكل أشكاله». (الرياحي، 2011: ج4: 343 والرياحي، <http://atabat.maktoobblog.com>)

إذن إن وطار يعطينا صورة واقعية عن بلده، عن تاريخه المعاصر، عن الثورة الواقعة فيه، مستخدماً الشخصيات الخيالية كاللاز وزيدان وهو وقدور الذين كانوا كلهم ممثلين لفرقة فكرية عقائدية مختلفة رأها الجزائري في نفسها من خلال الثورة.

«قدور ابن صاحب الحانوت يمثل الطبقة البرجوازية⁹ وهو عامل الفرن يمثل طبقة «البروليتاريا»¹⁰ بينما يمثل الشيخ، الطبقة المتوسطة ذات الاتجاه الإسلامي المتشدد،... فاللاز يمثل الثورة الشعبية، وزيدان يمثل الاتجاه الشيوعي الماركسي فأدركنا أن الثورة شارك فيها أبناء الشعب الجزائري علي اختلاف انتماءاتهم السياسية وأوضاعهم الاجتماعية عدا طبقة الإقطاعيين والرأسماليين المستغلين الذين لم يسهموا في الثورة لأن مصالحهم مرتبطة بالوجود الإستعماري». (عثمان، 1993: 19-20)

كما يستخدم الشخصيات الواقعية كـ «ديان بيا فو»، مشيراً إلي حوادث واقعية كـ «ثمانية ماي»، «القومية»، «تكوين حزب جديد يعني جبهة التحرير الوطني».

4-3- مظاهر الحرية في «اللاز»

إن الحرية بأنواعها المختلفة بارزة في الرواية حيث إننا حينما ننظر إلي أبطال الرواية نراهم يجاهدون من أجل الحرية كل الجهاد بالرغم من اختلاف عقائدهم واتجاهاتهم الفكرية والسياسية. فاللاز وزيدان وهو ويعطوش والشيخ الربيعي وغيرهم مناضلون من أجل الحرية.

إن من الموضوعات التي يؤكد الطاهر وطار علي تصويرها في هذه الرواية التي يكتبها أتان الثورة هي إزالة الأمية الفكرية والثقافية لأنها عدو الثورة ولا حرية للأمة، «لأن الجهل والامية بنسب كبيرة ومتفاوتة في العالم العربي كانت ومازالت سبباً رئيسياً في تخلف العالم العربي وتدني مستوي إحساسه بالمسؤولية تجاه صراعه مع القوي القائمة لحرته، فمعظم المثقفين العرب يردون سبب تخلف الأمة العربية إلي أنظمة الحكم القائمة في العالم العربي ويركزون علي ضرورة تغيير أنظمة الحكم القائمة، والنظام العربي الحاكم القائم وهو مطلب قد يكون لأول وهلة مقنعا ومنطقيا ولكننا نسينا أن أنظمة الحكم القائمة ما هي إلا إفراز اجتماعي وسياسي وثقافي للمجتمع العربي القائم». (النايلسي، 1992: 22)

إن الحرية التي يؤكد عليها الروائي في هذه الرواية «اللاز» يمكننا أن نقسمها إلى ثلاث: الحرية السياسية، والحرية الفكرية والحرية الاجتماعية.

4-3-1- الحرية السياسية

يهتم الروائي وطار من بين هذه الحريات الثلاث هذه بالحرية السياسية أكثر من الباقي، لأن «الحرية السياسية في الوطن العربي هي أساس ومصدر الحريات الأخرى». (النايلسي، م.ن: 27) فقامت الثورة العربية في الجزائر من أجل تحرير الإنسان العربي الجزائري من الاستبداد السياسي الذي فرضه الاستعمار الفرنسي عليه وأن الأديب وطار هو من كتاب الثورة الملتزمين بمبادئها والمكرسين أدبهم من أجل خدمتها.

إن وطار لا يري الحل الرئيسي للوصول إلى الحرية السياسية إلا عن طريق الثورة، فالثورة هي القادرة علي ولادة الحرية وما هي الثورة إلا التضحية كما يقول: «... وخيل إليه أن الثورة ليست سوي شيء واحد ... هذا الشيء هو التضحية ... التضحية بكل شيء وفي عمقها الكبير». (وطار، م.ن: 34) إن الحرية والاستقلال السياسي غاية الإنسان الجزائري الذي عاني من الاستعمار الفرنسي أكثر من مئة سنة فالروائي الطاهر وطار يرصد مشكلة الإنسان الجزائري المعاصر في روايته لأجل تحرره من قيود الاستعمار لذلك تحتضن روايته هذه مظاهر الحرية السياسية.

4-3-2- الحرية الفكرية

إن الحرية الفكرية أيضا من مهام الروائي في الرواية التي تتجلى في شخصية «قدور» تجليا بالغاً؛ ها هو قدور الذي يمثل شخصية ذات أفكار ملتوية ومتبعثرة، الذي يفتقد نفسه أحيانا من بين هذه الأفكار المختلفة: «يعجز قدور عن طرح أسئلته الأخرى ويتغرق في دوامة من التفكير». (م.ن: 37)

وفي النهاية يحاول الروائي أن يصوره بصورة يتحرر من هذه القيود الفكرية كنموذج لإنسان نجح فكريا فوصل إلى الحرية الفكرية. والحرية الحقيقية لا تتحقق الا بعد الحرية الفكرية، فيصبح قدور من المناضلين المجددين يضحي نفسه لأمتة وشعبه البطل لأجل حريتهم فيغادر الحياة الدنيوية الفانية شهيدا ومن الأحسن أن نقول إن قدور يصل إلى نهاية الحرية (الاستشهاد).

يعتقد الطاهر وطار أن الثورة التي تؤدي إلى الحرية، هي بمثابة إعادة بناء الإنسان أو إعادة الإنسان إلى إنسانيته الأولى النقية الصافية؛ يبين ذلك من لسان زيدان: «فكر زيدان، ثم شعر بالإشفاق علي قدور فأضاف في نفسه، الثورة تحول الإنسان ومادامت عميقة، فإن التحول يحدث بسرعة، يجب أن يتحول قدور، إلى مناضل ثوري، متطهر من العقد والرواسب...». (م.ن، 49)

4-3-3- الحرية الاجتماعية

أما الحرية الاجتماعية فيصورها في الرواية في مواقف مختلفة فيؤكد علي حالة الجزائر الراهنة التي تعاني من البؤس والجهل والظلم والجور... وللحصول علي الحرية الاجتماعية لا يري الروائي حلاً لها سوي الثورة حيث يقول: «حمو يري أن الوضع الذي أصبح عليه الناس من فقر وبؤس وعري وجهل ومرض وظلم وجور يجبرهم علي

العمل من أجل التخلص منه وهذا العمل ليس سوي الثورة، ليس سوي التمرد علي الأسياد، علي كل شيء، علي هؤلاء الأسياد الذين - كما يقول أخوه زيدان - لم يفهموا، ولا يريدون أن يفهموا، ولا يريدون أن يفهموا إلا أمراً واحداً، هو مصلحتهم... مصلحتهم التي تتعارض مع مصالح جميع الناس... بل تقتضي أن لا يكون لأي أحد عداهم، مصلحة ما...». (وطار، 2007: 41)

٥- نتيجة

إن البيئة التي عاشها الطاهر وطار وظروف الجزائر السياسية وحركة التحرير الوطني كلها أثرت في نتاجه الأدبي وكما هو المعروف أن «الأديب ابن البيئة»، ولا يمكن فصل منجزه الروائي عن نضاله السياسي في حرب التحرير الجزائرية والوضع الاجتماعي المسيطر علي الجزائر وتاريخ الجزائر المعاصر فنستطيع أن ندّعي أن وطار أنجز للجزائر روائياً. إذن يرصد الروائي وطار الواقع التاريخي في كثير من رواياته، لذلك تمتلك أعماله الرؤي التاريخية بما فيها من الرؤي الاجتماعية والسياسية، لأن القضايا الهامة في تاريخ الجزائر المعاصر لفت انتباه الأديب كالاستعمار والثورة والحرية.

إن أهم ثورة سجلها تاريخ الجزائر هي ثورة 1962م ضد الاستعمار الفرنسي فلقد نالت الجزائر إثر هذه الثورة، استقلالها عن فرنسا. فيهتم الطاهر وطار كأديب بقضية الثورة اهتماماً بالغاً في رواياته خاصة «اللاز» لأن الروائي يري نفسه مناضلاً ثورياً فبذلك يمكن القول إنه يشارك في الثورة. يتحدث الروائي في الرواية عن الاستعمار ومظاهره كالظلم والجور، وعدم الأمن والأمان، والفقر والبؤس والظروف الاجتماعية التعسة بمصاديقه المختلفة لكي يعطينا صورةً مختنقة من مجتمعه والتي أثبتت ضرورة إقامة الثورة. فتجلّت في الرواية مظاهر الثورة نحو تكريم الشهداء، والمجاهدة الفكرية لالتحاق الجميع إلي الثورة، والصمود والمقاومة، والاتحاد رغم الاختلاف والخيانة. كما برزت مظاهر الحرية كالحرية السياسية والحرية الفكرية والحرية الاجتماعية. فحقاً ان الطاهر وطار نجح في التطرق إلي هذه الطموحات وتصويرها جيداً لأنه حاول:

أولاً في إحياء اللغة العربية في الجزائر حينما طغت الفرنسية علي العربية وسبب ذلك يعود إلي ظروف الجزائر السياسية واستعمار فرنسا لفترة طويلة دامت زهاء مائة وثلاثين عاماً وذلك في حين أن أكثر الأدباء يكتبون بالفرنسية كمحمد ديب، مولود فرعون، كاتب ياسين ورشيد بوجدره الذي كتب بعض أعماله بالفرنسية ثم ترجمت إلي اللغة العربية. فإذا كتب الكاتب الجزائري الذي بالفرنسية في ظل ظروف الاحتلال ولا يحس بالغرابة المفروضة عليه داخل اللغة وخارجها وبذلك فانه ليس معنياً بتحديد موقفه وهويته القومية بمعنى أنه يشعر بالانسجام مع المجتمع الفرنسي فنتاجه ليس جزءاً من الثقافة القومية بالتأكيد دون أن تلحّ علي قضية حرية الوطن. وعندما يكتب وطار رواياتاً كلها بالعربية هكذا يساعد في إحياء وترويض لغة الجزائريين الأصيلة وهي العربية ويحيي في الحقيقة الهوية الجزائرية والثقافة القومية.

ثانياً ان الطاهر «وطار» يتكأ علي قلمه كسلاح حضاري يعتمد علي فكر ووعي، لذلك نراه يدخل ميدان الفن الروائي سياسياً ومناضلاً وساهم في استقلال بلاده من الاستعمار الفرنسي وجاءت معظم أعمال هذا الروائي مع الإبداع الروائي معبرة عن حياته والتجارب التي عاشها قبل الاستعمار وبعده.

وثالثاً انه كان محباً لوطنه ويجاهد بكتاباته للحرية وتوخي العدل وترقية الإنسان، وفي الحقيقة، الكتابة الروائية عند الطاهر وطار ليست لعبة إمتاع تنتهي وظيفتها بمجرد الانتهاء منها، بل الكتابة لديه رسالة وموقف مما طبع كتاباته بطابع الرؤية الشمولية، وإدراك العلاقات التي تربط الفرد وأفكاره وأفعاله وعواطفه بالحياة وصراعات المجتمع.

المصادر والمراجع

- 1- ابن الأثير، ضياء الدين، (د.ت): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت: المكتبة العصرية.
- 2- بن جمعة، بوشوشة، (1992): مختارات من الرواية المغربية المعاصرة، ج1، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقق والدراسات، بيت الحكمة.
- 3- الحاج حسن، حسن (1996م)، النقد الأدبي في آثار اعلامه، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر، بيروت.
- 4- الحمداوي، جميل، (1997): السيموطيقا والعنونة، الكويت: مجلة عالم الفكر، ج25.
- 5- حميد، حسن، (1994): «الطاهر وطار: لست مباشرا في كتابتي و إنما عميق عمق البساطة» في لقاءه و حوار مع أسبوعية «إلى الأمام»، بيروت: الجمعة 10 شباط 1994.
- 6- الخطيب، د.عبدالله، (2008): النسيج اللغوي في روايات الطاهر وطار، ط1، الأردن، عمان: دار الفضاءات للنشر و التوزيع و الطباعة.
- 7- رحمانى وخضراوي، (2001): قراءة في ضوء المفاتيح السيميائية لرواية اللاز للطاهر وطار، مجلة المخبر (وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها)، العدد الأول.
- 8- الرياحي، كمال، (2011): هل ينبغي أن ننظر إلي التاريخ بعين واحدة عندما يتعلق الأمر بالمبدع؟، حوار مع الطاهر وطار سنة 2005، مقامات نقدية وحوارات مختارة، المقام النقدي الرابع، ج4، الجزائر: تلمسان، نشر وزارة الثقافة.
- 9- الزعيم، جاكين (1976): اللاز لبنة في صرح الرواية الجزائرية المعاصرة، المعرفة، أبريل، عدد 170.
- 10- سعد، سلمي محمود، (2000): الثورة الجزائرية في روايات الطاهر وطار (من الخمسينات حتي مطلع التسعينات)، رسالة الماجستير، لبنان: الجامعة الأمريكية في بيروت.
- 11- الطاهر وطار يتحدث للثقافة الجديدة: للأدب رسالة خلاص للإنسانية، شهرية الثقافة الجديدة، سنة 28، عدد 11-12، بغداد، إيلول - تشرين الأول، 1981.
- 12- الطرابلسي، (2003): حوار أجراه مع الطاهر وطار، جريدة البيان الإماراتية.
- 13- عبد القادر، عبد الله، (2010): الولي الطاهر يعود إلي مقامه الزكي، مجلة التبيين، عدد 35، جمعية الثقافية الجزائرية، الجزائر: مطبعة الجاحظية.
- 14- عثمان، د.عبدفتاح، (1993): الرواية العربية الجزائرية و رؤية الواقع، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- 15- كامبل، روبرت، (1996): أعلام الأدب العربي المعاصر، ج2، بيروت: دار النشر فرانتس شتاينر شتوتكرت.

- 16- محمد السعيد، د.عبدلي، (2010): رواية اللاز وسلطان الذاكرة، مجلة التبيين، عدد 35، جمعية الثقافة الجزائرية، الجزائر: مطبعة الجاحظية.
- 17- مرتاض، عبدالمالك، (1991): خصائص الخطاب السردى لدى نجيب محفوظ، مجلة الفصول، المجلد التاسع، العدد الرابع.
- 18- مفتاح، محمد، (1987): دينامية النص، الرباط: المركز الثقافي العربي.
- 19- النابلسي، د.شاكر، (1992): مباحث الحرية في الرواية العربية، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات و النشر.
- 20- وطار، الطاهر، (2007): اللاز، الجزائر: موفم للنشر.
- 20- الهاشمي، أحمد، (1386هـ.ش): جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تصحيح مصطفى نصراللهي، ط1، قم: دار الفكر.
- 21- هلال، أحمد علي، 2010: مؤسس الرواية العربية في الجزائر الطاهر وطار برج الكتابة العالمي، مجلة التبيين، عدد 35، جمعية الثقافة الجزائرية، الجزائر: مطبعة الجاحظية.
- 22- الهواري، صلاح الدين (2001) كيف تكتب بحثا او رسالة، دار ومكتبة الهلال، بيروت
- المواقع الانترنتية
- 23- معاني اللاز <http://www.yoon.com> 24 - البرجوازية <http://ar.wikipedia.org>
- 25- الركابي، د.جودت، رواية اللاز للطاهر وطار دراسة تحليلية، مجلة الرواية، <http://www.alrewaia.com/show.php> 26- الرياحي، حوار مع وطار <http://atabat.maktoobblog.com>
- هوامش البحث:

1- أستاذ مساعد في فرع اللغة العربية وآدابها بجامعة «تريت مدرّس» في طهران في إيران. (الكاتب المسؤول)

kroshanfekr@gmail.com

2- ماجستير في اللغة العربية وآدابها بجامعة «تريت مدرّس» في طهران في إيران. kaveh2959@yahoo.com

- 1- الطاهر وطار (آب 1936- آب 2010) من أكبر روائين عرفته الجزائر هو الطاهر وطار الذي نمت الرواية الجزائرية بيده نموّاً بالغاً لأنه سعى كثيراً لكي يعطينا تصوراً حقيقياً للمجتمع من آلامه، وطموحاته وآماله من خلال اللجوء إلى اللغة العربية الفصحى بينما كانت اللغة الفرنسية منتشرة في بلده وكما نجد كثيراً من الرواد ملتجئين إلى استخدام هذه اللغة الأجنبية فهو مع ذلك يدافع دفاعاً حقيقياً عن لغته الأصلية وبذلك يدافع عن الثقافة العربية العريقة.
- 1- الدورو أصغر عملة جزائرية

1- semiology

2- titorology

- « هي سياسة توسيع السيطرة من قبل الدول الكبيرة باستعمار البلدان المختلفة خاصة ما تقع في إفريقيا وآسيا. 1Imperialism - »
- 2- تظهر لصالح الطبقة العاملة، ولكن في الجوهر، تتضمن عناصر من الإقطاع، الرأسمالية، والقومية، والفاشية، أو غيرها من الخصائص
- <http://ar.wikipedia.org> (الاجتماعية والسياسية من الطبقة الحاكمة).
- 1- البرجوازية طبقة اجتماعية تمتلك رؤوس الأموال والحرف كما تمتلك القدرة على الإنتاج والسيطرة على المجتمع بحسب نظرية كارل
- <http://ar.wikipedia.org> (ماركس).
- 2- الطبقة العاملة الكادحة.